الحسناء

الجزء السادس — المجلد الثالث

بيروت شهر آذار سنة ١٩١٢

مونا ليزا جوكوندا

وكان ظلام الكهف حالكاً جداً .. ولم يمض غير القليل حتى نشأت في عاطفتان متعارضتان : الخوف والرغبة .. الخوف من ظلام الكهف والرغبة في الاطلاع على ما يكن هذا الكهف ان يحوي من الاسرار العميقة

ليوناردو دي فينشي

ليوناردو

في صيف سنة ١٩١١ سرقت من متحف اللوفر في باريز صورة كتبت عنها جرائد العالم (الا جرائدنا) فصولاً طويلة . ودفع خمسة ملايين فرنك لمن يرجعها مع العفو عمن اخذها وحتى الآن لم ترجع . وهي صورة « مونا ليزا جوكوندا » من فلم « ليوناردو دي فينشي » المصور الشهير الذي ولد في قرية فينشي من اعمال فلورنسه عاصمة بلاد توسكانا ومات في قصر « كلو » قرب « امبواز » في فرنسا ١٤٥٢ — ١٥١٩ وقد كان ايضاً نحاتاً . ومهندساً . وعالماً طبيعياً . وفيلسوفاً . وكاتباً وشاعراً . وموسيقياً .. وقد امتاز في كل هذه الفروع الفنية . والعلمية . فكان من اكبر رجال النهضة الايطالية . وهذا الرجل المرتقي السابق عصره بمراحل لم يكن يكفيه كونه مفكراً كبيراً . ومتفنناً عظيماً . بل كان يدفع دائماً وراء مطالب عقله السامي من فن الى فن . ومن اختراع الى اختراع . وهو مدفوع بقوة طبيعية في كيانه ولا غاية له سوى الابداع . وقد تقلب في خدمة الامراء والبابوات والملوك . فبنى لهم القصور . والقلاع . والجسورة . ونصب التماثيل وزين الردهات بالرسوم واقترح عليهم مشاريع عظيمة مثل تحويل مياه الانهر لتجري الاراضي وخرق الجبال لتقريب المسافات مما لم يقدم عليه احد قبله . الا ان هؤلاء العظماء مثل دوق ميلانو . وقيصر بورجيا . ولورنس المديسي . ولاون العاشر وفرنسيس الاول لم يساعدهم الحظ كل التمام تلك المشاريع لاشتغالهم تارة بالثورات . وطوراً بالحروب والغزوات . ولكن

هذا الرجل الذي اشتغل اكثر من غيره من الناس لم يبق من اثاره سوى القليل ومن جملتها صورة « مونا ليزا » التي فقدت مؤخراً من متحف اللوفر وحتى الان لم يهتد احد اليها او يعرف اين هي

وصورة « مونا ليزا جوكوندا » هي من ابدع الصور التي صورها ليوناردو وهي في نوعها ابدع صورة وجدت على الارض من يوم صوّر الانسان صوراً . وقد اشتغل فيها مصوّرها مدة اربع سنوات دون ان يكملها كما كان يشتهي

ولما كان التعبير عن معنى اهميتها وجمالها صعباً بالكلام وخصوصاً لابناء العربية فقد ترأت لنا طريق هينة توصل من يسير عليها الى قمة عالية فاذا كان نظره صحيحاً يشاهد من هنالك ما يرغب في مشاهدته .

وهذه الطريق توصلنا اولاً الى فلورنسه عاصمة توسكانا وترجع بنا الى سنة ١٥٠٥ والى يوم من ايام الربيع

كيف كان يصورها

الان المعلم ليوناردو دي فينشي موجود في محل شغله . وقد وقف امام النافذة ونظر الشمس تخرق حجاب الغيم الرطب . وتنشر على الاشياء نوراً بخارياً مع خيالات لطيفة . نوراً كان يحبه ويقول عنه انه يكسب الوجه جمالاً خصوصياً .. وقف مفكراً ثم قال :

امن الممكن انها لا تاتي اليوم ! .. قال ذلك وهو يفكر بالتي كان يصوّرها منذ ثلاث سنوات بثبات ونشاط لم يسبق لها مثيل في حياته . ثم انه اخذ يرتب المحل لاستقبالها وعلى ملامح وجهه وفي حركاته تبدو آثار الانتظار .. فرتب الريش والالوان ورفع الستار عن صورة فوق مرتفع ذي ثلاث قوائم . ثم اطلق نوفرة في وسط الدار كان قد بناها اكراماً « لها » وكانت الازهار التي تحبها . ومنها زهر السوسن التي غرستها يدها . مفتحة الان تعطر بشذاها الهواء .. وجاء بصينية صغيرة عليها فتات من الخبز قد قسمها من قبل لاجل الازالة التي كانت تتنقل الان في فسحة الدار . والتي كانت « هي » تطعمها من يدها .. ثم وضع امام المقعد المهيا لها سجادة عجمية ناعمة فاتى سنور ابيض شرقي الجنس نادر الوجود فنام في محله على تلك السجادة يردن ردن لطيفاً

وجاء ايضاً شاب ومعه رفاق وكلهم من الموسيقيين حاملين الالات موسيقية من اختراع ليوناردو . وكان هذا يدعوهم غالباً كما كان يدعو قبلاً بعض الشعراء والمغنين لاجل « تسليتها » في محل شغله ولكي يبعد عنها الضجر الذي يستولي على اوجه الذي يجلسون

امام المصورين .. وكان يلذ له ان يدرس على ملامح وجهها تأثيرات الافكار والمشاعر التي كانت تولدها الاحاديث والموسيقى وانشاد الشعر . الا ان هذه الاجتماعات امست الان نادرة لان المعلم تيقن بانها لم تكن بعد ضرورية وان « ليزا » لم تعد تفتقر من الجلوس امامه احداً كل شيء ولم تأتي بعد ؟ — النور والظل هما على ما اشتهي فهل يجب ان ابحث من يستطلع اخبارها ؟ ولكنها تعلم جيداً اني بانتظارها فلا بد لها من الحضور !

وازداد قلقه وجزعه وهو الذي كان دائماً رائقاً وهادئاً فبغتة هب نسيم لطيف فالماء مياه النوفرة فتمايلت ازهار السوسن تحت رشاش الماء فاصغى ليوناردو وشعر بانها قد جاءت

دخلت الاخت كامبلا مسلمة باحتشام وهي راهبة كانت تساكنها ورافقها كلما جاءت الى المصور ووراء الراهبة كامبلا اقبلت تلك التي كان الجميع ينتظرونها وهي امرأة في الثلاثين من عمرها مرتدية ثوباً بسيطاً فالفاً وعلى رأسها قناع شفاف يغطي نصف جبينها وكانت هذه « مونا ليزا جوكوندا »

مونا ليزا

وكل ما كان المعلم يعرفه عنها هو انها كانت من اسرة فقيرة في مدينة نابولي وان والدها فقد كل ثروته عند احتلال الفرنسويين لتلك المدينة وهي الان الزوجة الثالثة لرجل من رجال الفورنسه يدعى « فرنسيسكو دال جوكوندا » تزوجها بعد موت الاولى والثانية من نسائه

ولما ابتدأ ليوناردو بعمل صورتها كان قد تجاوز الخمسين وعمر زوجها خمساً وار بعين وهو عضو من اعضاء الجمهورية الفلورنسية الاثني عشر ، رجل عادي من الذين يكثر عددهم في كل مكان لا يرجى نفعه ولا يخشى ضرره على جانب عظيم من التوفير دأبه مزاولة الامور التجارية وخدمة المصالح العمومية ويعتبر جمال زوجته الفتاة من جملة التحف المزدان بها منزله على ان جمالها لم يكن يهمه اكثر من تحسين اجناس البقر وزيادة واردات الجمهورية من جلود المواشي وكانوا يزعمون انها لم تتزوجه حباً به بل اذعاناً لارادة والدها بعد موت خطيبها الاول في ساحة الحرب ويرددون كثيراً من الاخبار والنوادر عن المفتونين بجمالها الرائع والمنبوذين منها بيد ان الالسن الطويلة النمامة وان تكن كثيرة في فلورنسة فانها لم تقه بادنى كلمة شريرة عن ليزا وهي كانت تبدو دائماً بمنظر السكينة والحشمة والتقى وتهتم بالمتدينين واجباتها الدينية وتتصدق على الفقراء وتهتم بتدبير منزلها وترعى حرمة العهد لزوجها وتعامل بالحسنى ابنة له من زوجته الاولى معاملة الام لولدها

هذه هي الامرأة التي وصلت الآن مع اراهبة كاميلا الى محل ليوناردو دي فينشي تجلس امامه والصورة التي رفع المعلم الستار عنها قبل مجيئها هي صورتها الا ان الناظر الى تلك الصورة والى التي تمثلها اذا كان ممن قد اعطي لهم ان يحسنوا النظر والفهم يخال له ان الحقيقة تكاد ان تكون دون الرسم و يلاحظ ايضاً شبهاً وسراً عميقاً بين المعلم ومونا ليزا و بشر امام هذا الشبه وهذا السر يتعجب اشبه بالخوف كأنه امام شيء وهمي وفوق الطبيعة

ولم يكن ليوناردو قد شاهد مونا ليزا جوكوندا في غير وقت الشغل و بحضرة اشخاص آخرين ودائماً مع الراهبة كاميلا فالسر الذي يلاحظه الناظر لاول وهلة هذه بسر حبي او بالاحرى ما يسمونه حباً

وكثيراً ما كان ليوناردو يقول : ان الفن غير محدود والمتفنن يميل بالطبع الى رسم ملامحه في الاجسام التي يرسمها وفي الكتابة والشعر وهو يرى سبب هذا الميل في كون النفس تحب ان تكيف حسب شعورها بخلافها الحي فحينما تريد ان تكون جسداً جديداً فمن البديهي انها تجعل خطوط الجسد الجديد مطابقة للذي تكون قد كيفته هي ذاتها حتى انه في صور الميتات يبدو وراء الشبه الخارجي اذا لم تكن هيئة المصور ذاته فعلى الاقل نفسه كما تبدو في الكتابة وان اختلفت المواضيع نفس الكاتب والشاعر

واذا كان الناظر قد اعطي له ان يلاحظ دقائق الامور فانه يرى شبهاً بين ليوناردو ذاته و بين مونا ليزا وليس هذا الشبه في ملامح الوجه وحده بل في معنى العيون ونظراتها وخصوصاً في ابتسامة الفم وكان المعلم قد عالج رسم هذه الابتسامة في كل الصور التي عملها قبل تعرفه بمونا ليزا كأنه لم يكن يفتر عن البحث عن تلك الابتسامة الى ان وجدها على فم مونا ليزا وهي ابتسامة طبيعية بيد انها تملأ الناظر حيرة ودهشة وخوفاً في وقت واحد وكانت تلك الابتسامة ترفعها في عين المصور عن مقام مخلوقة حية وزوجة رجل كسائر الناس وتجعلها كطيف خيال قد استنزلته ارادة المعلم اليه كأنه صورة له ثانية

ملكة آلهة الجمال والحب

ما كاد المعلم يتندى بالشغل حتى القى القلم من يده وانعم النظر في وجه السيدة التي لم يكن ادنى تأثير على ملامحها يخفى عليه ثم قال لها

— ان امرأ يشغل فكرك يا سيدة

فرفعت هي نظرها الرائق نحوه واجابت

— نعم امر صغير لا اهمية له فريضني مرة ولم انم في الليل الماضي

— من الممكن ان تكوني تعيسة بضجرك الجلوس . او ليس من الموافق ارجاء العمل الى يوم آخر

— كلا الا تأسف على ضياع يوم مثل هذا اليوم ؟ انظر هذه الخيالات اللطيفة والنور الباهت فكان هذا النهار قد صنع لاجلي .. وبعدما صمتت قليلاً قالت : كنت عارفة بانك تنتظرني ولو لم تزرني بعض النساء الزوارات لما تاخرت عن المجيء قبل الآن

فاذاً هذا هو السبب وليس انحراف صحة زميلتك . الم تلاحظي يا ماذونا ان زوجة لا معنى لها من اناس لا معنى لهم ولا هم يحزنون بشيء تظلم نفوسنا وتكدر صفو حياتنا اكثر من احزاننا الخصوصية

فاحنت براسها وكان الواحد منهما قد تعود فهم افكار الاخر دون كلام

ثم امسك القلم يريد استئناف الشغل فقالت له

— هلا اخبرتني شيئاً ايها المعلم ؟

— ماذا تريدين ان اخبرك ؟ .

فافكرت قليلاً وقالت : اخبرني قصة مملكة الهة الجمال وكانت تفضل على جميع الاخبار ما يتعلق بتذكارات ليوناردو الشخصية من اسفار وملاحظات عن الطبيعة ومواضيع فنية يريد اتمامها .. وهو يردد تلك الاخبار بنكهات بسيطة وصوت رخيم

فاشار على الشاب الموسيقي فاخذ هذا قيثارته وجعل يعزف عليها الحاناً رخيمة وشرع هو يخبرنا بصوته اللطيف وكلماته البسيطة عن مملكة ربة الجمال والحب فقال

ان البحارة الذين خاضوا عباب البحر يؤكدون ان من كتب لهم البحث ان يهلكوا غرقاً ينظرون احياناً في وسط الزوابع الهائلة جزيرة قبرص تمتلكها الهة الجمال والحب . وحولها تثار العواصف وترتفع الامواج وتتحطم بعنف وعناد على الصخور .. وكثيراً ما تحدد البحارة الذين يرون بسفنهم والغيوم على تلك الصخور منجذبين بجمال الجزيرة الفتان . آه كم من السفن قد تحطمت وغرقت في اللجة ! فعلى الشاطئ . لا تزال بقاياها المحزنة وقد طمر نصفها في الرمل وغطت النصف الآخر رغوة المياه والاعشاب البحرية . فهنا يرى مقدم بعض تلك السفن مرتفعاً وهناك مؤخرها . والى جانبها تقع العين على جسم سفينة بضلوعها الظاهرة كانها هيكل انسان لم يعث بعد فيما يلي . ووراءها بقايا سفن اخرى محطمة تحطيماً ومتبددة على وجه المياه بكثرة هائلة حتى يتوهم الناظر انه في يوم البعث . اما سماء تلك الجزيرة الفتانة فهي دائماً زرقاء صافية والشمس تلمع على جبالها وسهولها الزاهرة .

والهواء فيها لطيفاً هادئاً . حتى ان دخان المباخر الشاعلة على درجات الهيكل يصعد مستقيماً مثل عواميد الرخام البيضاء . ومثل اشجار الشربين السوداء الشاخة تنعكس خطوطها في بحيرة جامدة وشفافة مثل المرآة . . ولا يسمع هناك سوى خرير النوافر اللطيف والالعاب المائية المتسلسل من حوض الى حوض . وعن بعد ينظر بنو البشر هذه البحيرة الهادئة قريبة المنال ولكنهم لا يستطيعون الوصول اليها والهواء يحمل اليهم من بعيد شذا غابات الآس وكلما اشتدت الزوبعة هوجاً في البحر كان الهدوء مستتباً في مملكة الزهرة الهة الحب والجمال

وساد بعد هذا الحديث وبعد نفحات القيثارة الشجية سكوت هو اجمل من كل سكوت . ولم يعد يسمع سوى خرير النوفرة في وسط الدار

وكان مونا ليزا وقد اسكرتها نغمات الموسيقى وابعدها هذا السكوت عن حقيقة الحياة قامت طلقة المحيا ذهولة عن كل شيء ما عدا ارادة العلم فاخذت تتأمل في عينيه بابتسامة مملوءة اسراراً كأنها مياه صافية راكدة يمكن للعين ان تبصر غورها

والآن يمكن للناظر الفطن ان يشاهد من هذا العلو « ليوناردو دي فينشي » ومونا ليزا جوكوندا » كأنهما مرآتان يعكس من كل من الواحدة في الثانية صورة لمعنى واحد الى ما لا نهاية له

اخر اجتماع

وفي مساء ذاك اليوم استدعى نقولا ميكافالي مستشار جمهورية فلورنسه ليوناردو دي فينشي اليه وباحثه في انشاء قناة يحول فيها مياه نهر « الارنو » عن مدينة « بيزا » مما يقتضي تغيبه عن فلورنسه مدة من الزمن . فعاد الى منزله وقد مر هزيع من الليل وهو يسير على ضفة النهر وحده مفكراً . ويتظر من حين الى آخر نجمة منفردة تشع فوق راس الجبل . ويتأمل في المدينة الراقدة بسكينة وهدوء بها ذات حركة وحياة . . ثم افتكر فجأة بمونا ليزا جوكوندا وتعجب من كونها زوجة لرجل كفرنسيسكو ضعيف البنية طويل القامة على خده الشمال ثؤلولة وله حاجبان غليظان . ومثل اكثر العامة لا يلذ له الحديث الا عن التجارة والاشغال . وكان ليوناردو احياناً يلذ له جمال مونا ليزا المعنوي الغريب والفائق الطبيعة الممكن ان يقال عنه انه اقرب الى الحقيقة من الحقيقة ذاتها . الا انه في بعض الاحيان كان يتأثر ايضاً من جمال شخصها الفتان

ولم تكن مونا ليزا من النساء المتعمقات في العلوم . ولم تتكلم ابداً عن معارفها الادبية . ولم يعرف ليوناردو الا بطريق العرض انها تحسن اللغتين اللاتينية واليونانية . وكانت

البساطة منتشرة على هيئتها الخارجية وممازجة لهجتها وحديثها الذين لم يكونا خاليين من الفطنة والذكاء . وكانت تعلق احياناً ببعض كلمات تقربها منه اكثر من جميع الذين يعرفهم . فيراها ويعتبرها صديقة مدونة . واختاً حنونة . وكلما كان يتأمل فيها كانت تتجلى له الصورة المعنوية التي كان يرسمها عنها بظاهر تكاد نفسه الجبلة تجسم فيه بكاملها

وكان يتساءل عما اذا كان يجوز له ان يسير عمق تلك النفس الحية القريبة منه بنفس الرغبة التي كان يدرس فيها العلوم . الا تنضب اخيراً تلك الصديقة وتبعده باحتقار و بغض شأن غيرها من النساء ؟ اما الان وقد دنى وقت ابتعاده عن فلورنسه فانه شعر بحاجة الى تقرير فكره على وجه من الوجوه . اتبقى مونا ليزا في نظره امرأة مصنوعة من لحم ودم او تظل في جنانه تلك الصورة المعنوية التي كان يحلم بها دائماً ؟ .. وبينما هو هائم في ظلمات الافكار واذا به قد وصل الى شارع ضيق مظلم وسمع من احدى النوافذ صوت غناء فوقف مصغياً . وكان الصوت يقول : ما اجمل الشبيبة — وما اسرع زوالها — فمن يريد ان يفرح فليفرح — الغد لا يعرف كيف يكون

ولما سمع الشطر الاخير شعر بخنجر في نفسه . اما الان وقد رزقها لحظة في خريف حياته المنقضية في العزلة والحزن نفساً حية كنفسه . فهل يقصيها عنه زهداً بالحياة من اجل التأمل مفضلاً تضحية الحاضر لاجل المستقبل والحقيقة لاجل الوهم ؟ أيختار الجوكوندا الحية او الجوكوندا المعنوية مع علمه ان اختيار الواحدة يفقده الاخرى ؟ وكلتاهما عزيزتان لديه . وسار في الشوارع المظلمة حتى وصل الى مسكنه فطرق الباب في سكون الليل ومن بعيد يسمع اصوات الاجراس الليلية وكأنها ترددد : الغد لا يعرف كيف يكون

وفي الغد جاءت مونا ليزا الى محل ليوناردو وحدها وهذه اول مرة لم تصحبها فيها الراهبة كاميلا وكانت عارفة ان تلك المواجهة هي الاخيرة

وكان نور الشمس هذه المرة ساطعاً فارخى المعلم ستاراً خفف من حدة النور وجعل الخيالات لطيفة مما اكسب وجه ليزا منتهى الجمال .. وكانا وحدهما . واقبل كل العمل صامتاً مستجمعاً الفكر وشاعراً براحة في نفسه ناسياً الافكار التي كانت قد اقلقته سابقاً الامس عن الفراق والخلجة الى تقرير فكره على وجه من الوجوه . وكأني به قد شعر بان سير الزمان قد وقف فاضمحل عنده الماضي والحاضر والمستقبل ولم يعد يرى الا تلك الامرأة الفتاة جالسة امامه وعلى فمها تلك الابتسامة السحرية الغريبة الصافية .. كانما كانت دائماً جالسة امامه وستبقى كذلك الى الابد . وكان ينظر اليها بعض الاحيان بنفس المين

والنوع الذين كان ينظرهما الى المحكوم عليهم بالاعدام لما كان يرافقهم ليدرس على ملامحهم اخر تاثيرات العذاب والنزاع

ورأى بغتة ظل فكر ضعيف يلوح على جبين ليزا كاثر النفس على وجه المرآة واراد ان ينسخ هذا الظل الذي أبهم عليه معناه و يعود بليزا على ما كانت عليه في دائرة الحلم فشرع يقص عليها قصة من تلك القصص المشابهة للالغاز التي كان يدونها في مفكراته قال: « دفعتني الرغبة في استطلاع ما ابدعته الطبيعة العظيمة والغنية من الاشكال الجديدة والغريبة التي يجهلها الناس ولا يحلمون بها. و بعدما سرت مسافة بين صخور وعرة وصلت الى مدخل كهف مظلم فوقفت هناك جافلاً متردداً حتى عزمت اخيراً على الدخول. فاحنيت رأسي وانحنيت واضعاً يدي الشمال على ركبتي و باليمين حاجباً عيني لينعودا على الظلمة ثم تقدمت بعض خطوات مقطب الحاجبين اخرز العينين منجمعاً جداً نظري لعلي اكتشف شيئاً . الا ان الظلام كان حالكاً جداً ولم يمض غير القليل حتى نشأت في باطني عاطفتان متنازعتان الخوف والرغبة في الاطلاع الخوف من ظلام الكهف والرغبة في الاطلاع على ما يمكن لهذا الكهف ان يحويه من الاسرار العميقة »

وسكت المعلم والظل لا يزال ظاهراً على وجه « الجوكاندا » فقالت

— وايه العاطفتين تغلبت على الاخرى ؟

— عاطفة الرغبة في الاطلاع

— وهل كشفت اسرار الكهف ؟

— قد عرفت ما يمكن معرفته

— وهل تبوح بذلك لبني البشر ؟

— هذا غير ممكن وانا لا اعرف كيف اطلعهم عليه ! لكني اود لو استطعت ان اجعل فيهم رغبة شديدة تقوى فيهم على الخوف والتردد !

فنظرت اليه مونا ليزا نظرة حادة وغريبة وقالت :

— واذا كانت هذه الرغبة في الاطلاع ليست كافية ايها المعلم ليوناردو . واذا كان يلزم شيء اعظم لمعرفة غاية الاسرار واعظمها ؟ قالت ذلك وهي تنظر في عينيه باتسامة لم يكن قد لاحظها على فمها فاجاب :

— وماذا يلزم اكثر من الرغبة الشديدة ؟

فسكتت مونا ليزا .. وكان نور الشمس قد اخترق طيات الستار ووقع على الارض

فغادر المكان وتغيرت الالوان والخيالات وزال معها عن وجه ليزا ذلك الجمال غير المتناهي كتغيرات الموسيقى . ثم قالت :

— وهل انت مسافر غداً ؟

— بل هذا المساء

— وانا ايضاً سأسافر عن قريب

فادرك انها مسافرة لئلا تبقى دونه في فلورنسه . فهم بان يقول شيئاً لكنه سكت فتكلمت هي :

— زوجي فرسيسكو عازم على الذهاب الى جهات كالابريا يداعي اشغاله وقد طلبت منه ان يصحبني معه

فجوّل نظره وهو مقطب الحاجبين فرأى بتضجر نور الشمس ينوّه جمال الاشياء حوله بتغيير الوانها واظهار خطوطها القاسية .. وشعر بضعف وشفقة سيفي قلبه فقال له موناليزا : ليس هذا بشيء . يمكنك ان ترتب الستار فالوقت لم يفت وانا لست تعبة

— كلا .. هذا يكفي .. قال ذلك وقد ترك الريشة من يده

— وهل لا تكمل ابداً هذه الصورة ؟) فاجاب بحدة ورهبة

— ولماذا ؟ هل لا ترجعين الي بعد عودتك ؟

— نعم سارجع .. ولكن ربما تغيرت بعد شهرين فلا تعود تعرفني هل لم تقل بان هيئة الناس وخصوصاً النساء تتغير بسرعة

فقال بهدوء كأنه يحدث نفسه . كنت اشتهي ان اكملها . لكني لا اعرف . يظهر لي احياناً ان ما اريده هو مستحيل

فاجابت بتعجب ! : مستحيل ؟ فلقد سمعت قبلاً بانك لا تكمل شيئاً لانك بالحقيقة تطلب المستحيل

وخيل له انه يسمع في كلامها هذا عتاب ملؤه وداعة ولطف .. فقال في فكره : وهل الامر هكذا : وحالاً استولى عليه شعور مؤثر . اما هي فنهضت وقالت ببساطة كعادتها: قد حانت الساعة فالوداع يا معلم ليوناردو اتمنى لك سفراً سعيداً

فرفع نظره اليها وتراءى له هذه المرة ايضاً على وجهها معنى لشكوى اليأس والرجاء . وهو يعلم جيداً ان تلك الدقيقة سوف تمر ولا تعود ابداً . وكانت هي واقفة تبتسم له ابتسامة صافية وهادئة كما كانت تبتسم له دائماً . لكنه الان قد تراءت له هذه الابتسامة الصافية وهذا

الهدو مثل الابتسامة والهدو الذين يظهران على محيا الاموات . فشعر في قلبه بشفقة عظيمة لا تقاوم فزادته ضعفاً على ضعف . ومدت مونا ليزا يدها نحوه وهو جامد و بكل هدو اخذ اليد وقبلها لاول مرة من يوم عرف ليزا و بالوقت عينه شعر بانها قد انحنت بسرعة ورسمت على شعره الجميل قبلة لطيفة وقالت ببساطة : الله يحرسك !! وذهبت!

ولما عاد ليوناردو لذاته كانت قد بعدت عنه كثيراً وحواليه يسود سكون مضجر يضيق الصدر ، سكون اكثر ارهاباً من سكون الظلام الاشد هولاً والاكثر حلكاً

ومثل الليل الماضي سمع في الظلام اصوات الاجراس ترن وكأنها تردد . الغد الغد لا يعرف كيف يكون

وبعد شهرين من الزمان عرف ليوناردو ان في احدى قرى كالابر بن الصغيرة قد ماتت مونا ليزا جوكوندا

بيع الصورة

سنة ١٥١٥ غزا الملك فرنسيس الاول الفرنساوي بلاد توسكانا وسعى لاستمالة اصحاب الفنون اليه ولما لم يسمح البابا لاون العاشر ليكال انجلو ولرافايل بالذهاب مع الملك اكتفى هذا بالمعلم ليوناردو دي فينشي وقد بلغ الرابعة والستين من عمره فاخذه الى فرنسا واسكنه قصر « كلو » قرب « امبواز » واجرى عليه رزقاً سنوياً مكرماً وناداه ملقباً اياه (بابي) احتراماً له . فتشجع ليوناردو واقترح على الملك اجراء ما كان يحلم به من المشروعات الكبيرة فلقي اقتراحه صدى في قلب الملك بادىء الامر الا ان المقربين من جلالته ما لبثوا ان حولوا افكاره عن ابراز تلك المشروعات الى حيز العمل . فيئس المعلم هذه المرة ايضاً من اظهار مخبئات عقله وعزم على الاعتزال عن الناس وقد مات في قلبه ما كان يعلقه من الامال على الملوك والامراء . وقضى ما بقي له من العمر منفرداً بين التفكير بالاختراعات مثل درس اجنحة الطيور وطيرانها رجاء ان ينتهي الى صنع آلة للطيران . لكنه كتب اخيراً في مفكرته : « لا يمكن الطيران بالاجنحة بل يجب ايجاد قوة ثانية ... وهذه القوة سيجدها الانسان الراغب في الاطلاع » وكبناء غواصة تمكن من السير فيها تحت المياه وكتب عنها في مفكرته . « لا اشهر هذا الاختراع لئلا يستعمله اشرار الناس لتدمير السفن الكبيرة »

ولم يكن قد اخذ معه الى فرنسا من صوره سوى صورة مونا ليزا جوكوندا فكان كلما استولى عليه الانقباض واليأس ينظر بها فتعيد ابتسامتها السحرية الراحة لنفسه

وسمع ذات يوم وقع اقدام خارج القصر فقال لخادمه . لا تدع احداً يدخل علي" بل

قل اني مريض . وشاهد الخادم الملك قادماً بعض رجاله فبادر الى فتح الباب ولم يكد المعلم يتمكن من ارخاء الستار على صورة امامه لم يكن بدع احداً ينظرها حتى دخل الملك واراد المعلم ان يجلو امامه حسب العادة فلم يتركه بل قبله في جبينه مستخبراً عن صحته واحواله وعمله . وبينما ليوناردو يجيب : انا مريض سيدي لا استطيع العمل) كان يجتهد في ابعاد الصورة من امام الملك الذي سأل عما تحت هذا الستار فاجابه : هي صورة قديمة لا اهمية لها وقد شاهدتها جلالتك غير هذه المرة .. فالح الملك برؤيتها ثانية قائلاً : كلما اطلت النظر الى صورتك ايها المعلم زادت في عيني حسناً . وفيما المعلم يتردد في رفع الستار تقدم رجل من الحاشية ورفعه فاذا هي صورة مونا ليزا .. فقطب ليوناردو حاجبيه . وجلس الملك على مقعد وجعل يتأمل في الصورة ثم قال : ما اجمل هذا .. وما اغربه ! هذه اجمل امرأة نظرتها .. فمن هي صاحبتها ؟

— هي مونا ليزا زوجة احد رجال فلورنسا

— وهل صورتها من زمان طويل ؟

— من عشر سنوات

— الا لا تزال على ما كانت عليه من الجمال

— لقد مالت يا مولاي .. فقال احد اعوان الملك وكان شاعراً : ان المعلم قد اشتغل فيها اربع سنوات وهو يزعم انها لم تكمل بعد على ما يشتهي .. فقال الملك متعجباً : — لم تكمل ! .. وماذا يريد بعد .. هي حية لا ينقصها سوى الكلام

وكان فرنسيس الاول من الملوك الذين « يحبون الحياة » فنظر الى المعلم وقال له : بالحقيقة انا احسدك على قضاء اربع سنوات صرفتها تصور هذه المرأة . فمثلك لا يحق له ان يشكو من سوء حظه .. وماذا كان يقول زوجها مدة هذه السنوات ؟ وهل كنت اكملت الصورة الآن لو كانت باقية في قيد الحياة ؟ .. وكان الملك يتكلم ويضحك ويغمز بعينه ولم يكن يخطر على باله انه من الممكن ان تكون مونا ليزا بقيت طاهرة الذيل مخلصة لزوجها . ثم قال وهو ينظر الى الصورة : هذا الجبين وهذه العيون . وهذا الفم وهذا العنق و .. ان المصور لا يكفي لصنعه مثل هذه الصورة ان يكون ماهراً في فنه بل يلزم له ان يفهم كل الاسرار المنطوي عليها قلب المرأة وهو سر يعجز الشيطان ذاته عن فهمه . انك تنظر الى امرأة تخالها لطيفة المعشر . كثيرة الحياء . تضم يديها كراهية يؤلمها قتل بعوضة .. ولكن ان انت استرسلت اليها او حاولت ادراك ما يجول في نفسها .. وتقدم

الشاعر وهمس في اذن الملك قائلاً : عرفت يا مولاي عن ثقة ان هذا الرجل الغريب الاطوار لم يكن يحب مونا ليزا ولا احب غيرها من النساء . فهز الملك منكبيه باسماً ثم قال للمعلم — اريد ابتياع هذه الصورة .. فاجفل ليوناردو واجاب : هي غير كاملة يا مولاي

— انت تمزح يا ابني . فانا احظر عليك لمسها من الان وصاعداً واريد الحصول عليها حالاً ! فكم تطلب بها واعلم ان الملك لا يتردد

وشعر ليوناردو بانه يجب عليه ان يجد عذراً لئلا تخرج الصورة من حوزته ولكن لم يكن يدري ما يقوله لهذا الرجل ليفهمه ما هي منزلة الصورة لديه وكيف انه لا يمكنه التخلي عنها بكلا عز وهان فظن الملك ان المعلم يخاف ان يبيعها بثمن بخس . فقال : انت لا تعين الثمن فانا اعينه .. ثم نظر الى الصورة : ثلاثة الاف ريال ذهباً . الا يكفي هذا ؟ . ثلاثة الاف وخمسماية . — فاجاب المعلم وهو يرتجف :

— مولاي انا اؤكد لك .. ثم سكت وزاد اصفرار وجهه

— اربعة الاف يا معلم ليوناردو ! واظن هذا كافياً . وتعجب الحاضرون لانه لم يكن قد دفع مثل هذا المبلغ ثمناً لصورة من الصور . اما ليوناردو فرفع عينيه الى الملك وهو يكاد يختنق من الغم وبقع على اقدامه متوسلاً اليه ان يبقي له الصورة . وظن الملك ان عرفان الجميل كان داعياً لهذا التاثر فنهض يريد الذهاب وقبل المعلم في جبينه قائلاً : لقد تم الاتفاق .. اربعة الاف ريال ذهباً ندفع لك متى شئت . وغداً ابعث من يحمل اليّ الصورة . فسر يا ابني واعلم اني سأجعلها في مكان يليق بها فتحفظ للاجيال الآتية

وبعد انصراف الملك ارتمى ليوناردو على مقعد خاشع الطرف حزين الفؤاد وهو لا يكاد يصدق ما جرى له فتنازعه افكار غريبة ومقاصد مستحيلة : ايخبئها عن الملك ؟ .. ايمتنع عن تسليمها له ولو كان في ذلك هلاكه ؟ . ايهرب بها الى ما وراء جبال الالب ؟ .

— ولما اشتد الظلام امر ليوناردو خادمه بان يوقد المصباح ويسير امامه الى قصر الملك في « امبواز »

وكان الملك جالساً الى الطعام يأكل ويشرب ويضحك مع حاشية منتخبة وسيدات حسان بينهن شقيقة له بارعة الجمال كثيرة اللطف تدعى مرغريتا تحب اخاها محبة تجعلها تعتبر سيئاته حسنات وهفواته فضائل . فامر بليوناردو ان يدخل عليه فدخل المصور قلق البال مطرقاً برأسه الى الارض وجميع السيدات والرجال ينظرون بتعجب ودهشة الى هذا الشيخ الجليل ذي الشعر الابيض الطويل والوجه العابس والنظر الخجول ونهض الملك فقاته

مع شقيقته مرغريتا فرحب به وقال : ماذا تريد ان اقدم لك وانت لا تأكل الطعم اتأكل شيئاً من البقول والاثمار

— شكراً لك مولاي . لي كلمة ارفعها اليك . فالقى الملك عليه نظرة حادة وقال : ما تبغي ايها العزيز ؟ ثم اخذه بيده الى جانب الردهة ومعه شقيقته مرغريتا فقال الملك مشيراً اليها : ابكيها البقاء ؟ فانحنى ليوناردو امامها وقال

— نعم وانا اؤمل بان سموها تشفع لي لدى مولاي

— تكلم الآن وانت تدري اني لا ازال مستعداً لمساعدتك

— ان الامر ذاته يا مولاي . فالصورة التي ترون اخذها . وهي صورة مونا ليزا

— لله من غرائب اطوارك ! الم يتم الاتفاق بيننا على الثمن

— ليس مسألة الثمن يا مولاي

— واي شيء اذاً

فشعر ليوناردو مرة اخرى امام نظر الملك المخيف والعدو الاكثرات بانه يتعذر عليه الكلام مع هذا الرجل عن صورة مونا ليزا . لكنه تجلد وقال

— اشفق يا مولاي ولا تنزع الآن من يدي هذه الصورة فمن قريب تصير لك لان موتي قد صار قريباً . ثم صمت دون ان يمكنه النطق بكلمة اخرى . لكنه نظر الى مرغريتا نظرة فيها معنى تضرع اليأس . وكان الملك قد قطب حاجبيه وهز منكبيه بهيجان . فقالت له اخته : سيدي جد على المعلم بما يلتمسه منك فهو جدير به

— وانت ايضاً تتضرعين له ؟ فوضعت يدها على كتف اخيها وهمست في اذنه : الا ترى انه لا يزال يحبها

— كيف يحبها وقد مات من زمن بعيد

— وهل لا يمكن محبة الاموات ! الم تقل انت ذاتك يا اخي بان الصورة حية ! لكن شبهاً ولا تحزن قلب هذا الشيخ . فهبت الملكة قليلاً ثم قال مبتسماً

قد اخترت لك ايها المعلم مخابرة قوية . فانعم بالاً فانا اجيب سؤالك) فالتفت لحت في عيني المعلم بوارق الفرح ولاحظ الملك ذلك فالقى يده على كتف الشيخ وقال له : لا تخف شيئاً يا ابي . فلا احد ينازعك ليزا . وساجعلها في مكان يليق بها فتحفظ للاجيال الآتية

وشرت مرغريتا اللطيفة بدمعة تتلجلج في عينها فمدت يدها الى الصور فقبل ذلك اليد بكل هدو وسكينة